ورحل صالح أحمد العلي

(١٩١٨-٢٠٠٣م)

بقلم: د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

فقدت الأمّة في يوم الأربعاء ٢٣ شوال ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠٠٣/١٢/١٧م المؤرخ والمفكر العراقي الكبير الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي الذي وافاه الأجل في بغداد.

ولد الفقيد في مدينة الموصل عام ١٩١٨م، وواصل تعليمه في الموصل فبغداد فالقاهرة فجامعة أكسفورد في بريطانيا التي حصل منها على شهادة الدكتوراه.

بدأ حياته العلمية في كلية الآداب بجامعة بغداد، فكانت حياته حافلة بالعطاء تأليفًا وتدريسًا وإشرافًا وإدارة لمؤسسات أكاديمية، منها رئاسة قسم التاريخ، وعمادة كلية الآداب لسنوات طويلة، ورئيس مركز إحياء التراث، ورئيس المجمع العلمي العراقي في السنوات ١٩٧٨-١٩٩٦م.

أما إنتاجه العلمي فكان غزيرًا ومتنوعًا ومتميزًا؛ فكان محل تقدير من العلماء والمؤسسات العلمية، فاختاره عدد من المجالس والجمعيات العلمية العربية والمنظمات الدولية عضوًا عاملاً فيها، كما منح عددًا من الجوائز العالمية والإقليمية، منها جائزة الملك فيصل العالمية، وجائزة السلطان العويس

الثقافية، وجائزة المجمع العلمي العراقي. ومنحته منظمة اليونسكو ميدالية أرسطو، ومنحه اتحاد المؤرخين العرب الوسام الذهبي للمؤرخ العربي.

تجاوزت كتبه المطبوعة ٢٥ كتابًا. أما المعدّة للنشر فعددها ١٣ كتابًا، وحقّق مِن كُتب التراث ٥ كتب منفردًا ومشتركًا مع غيره، وله ٦ دراسات باللغة الإنجليزية، كما ترجم عن الإنجليزية ١٥ عملاً، إما كتاب كامل أو فصل أو أكثر من كتب أو مقالات. وتجاوز عدد أبحاثه ودراساته التي نشرها في مجلات علمية أو مقالات في مجلات ثقافية ٢٠٠ بحث ودراسة، كما أنّ لديه العديد من الأعمال المعدّة للنشر ما بين تأليف وتحقيق.

لقد أثرى صالح العلي المكتبة العربية بإنتاجه العلمي الأصيل، وأفاد منه العديد من الطلاب الذين درسوا على يديه لمدة تنيف عن نصف قرن، خاصة طلاب مرحلتي الماجستير والدكتوراه، فبلغ عدد رسائل الماجستير التي أشرف عليها ١٤ رسالة، ومثلها تمامًا عدد رسائل الدكتوراه.

وصف العلي صلته بزميل عمره أستاذنا الدكتور عبد العزيز الدوري واهتماماتهما العلمية بقوله: (عبد العزيز الدوري: إنسانًا ومؤرخًا ومفكرًا، ص٢٨):

"وتطورت المعرفة القديمة إلى صلة وثيقة لا يجمعها مجرد العمل المشترك، وإنما كذلك تماثل في الاختصاص، وإن كان هو أميل إلى دراسة الأحوال في العصور العباسية، وإلى اهتمام واضح بالجوانب الاقتصادية كان أبرز ثمارها كتابه **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام**، وعدد من الأبحاث المتصلة بالحياة الاقتصادية. أما أنا فكنت أميل للاهتمام بصدر الإسلام وبالجوانب الاجتماعية

والطبوغرافية. وظل هذا التوجه أساسًا للتطورات التالية لكل منا، فكانت بحوثنا متكاملة غير متطابقة، تجمعها آفاق جديدة في ميادين البحث، وأساليب متناسقة في طرقه، ومثل واحدة تنشد الحقيقة دون الغلو".

لقد بدأ إنتاج العلي العلمي برسالته للدكتوراه "التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري" والذي مُنح عليها جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٩٨٩م، ثم درس بعدها المدينة ومكة وما يحيط بِهما من وجوه كثيرة، ثم عاد لدراسة بغداد من التأسيس إلى القرن الخامس الهجري. وتنوعت دراساته من حيث موضوعاتها ومن حيث مجالها الجغرافي والزمني، فامتدت جغرافيًا من القيروان إلى خراسان، وزمانًا منذ ما قبل الإسلام إلى العصر الحديث.

وعناية العلي بالتراث كانت سببًا في إقامته صداقة وطيدة مع الشيخ حمد الجاسر. يروي الشيخ الجاسر طرفًا منها في مقدمة تحقيقه لكتاب **بلاد العرب** للأصفهاني (ص٦٦):

"وفي الوقت الذي كنت أعدّ نشر الكتاب كان الدكتور صالح أحمد العلي، عميد معهد الدراسات الإسلامية، والعضو في المجمع العلمي العراقي، يعدّ نشره أيضًا، دون أن يعلم أحدنا بعمل الآخر. ولما علمنا بعملنا، عرض كل منا التنازل لزميله حرصًا على إصدار الكتاب، ثم وافق عن طيب نفس أن يرسل كل مسودات عمله إليّ، وكانت تشمل مخطوطة الألوسي، ومطابقة نصوصها مع ما نقله ياقوت عنها، ومجموعة النصوص التي أوردها ياقوت نقلاً عن الأصمعي، وهي غير موجودة في المخطوطة، هذا بالإضافة

إلى بعض الفهارس، ودراسة عن محتوى الكتاب ومقارنتها بالدراسات القديمة عن جزيرة العرب.

وبالنظر لأهمية ما فيها من ملاحظات، فقد ضمنتها هذه الطبعة. أما مقارنته محتوى المخطوط مع ما نقله ياقوت، فمع أنه يطابق كثيرًا ما عملته، إلاّ أني رأيت أن أبقي ما وضعته أنا من هوامش لأنها أوسع وأشمل. ولكي أكون وحدي المتحمل لمسؤوليتها. واعترافًا بالجهد الذي بذله الدكتور صالح، فإني وضعت على الغلاف أنه شارك في تحقيق الكتاب".

ظل العلي وفيًّا لهذه الصداقة حتى آخر أيام حياته، فكان يمدّ مجلة **العرب** بعد وفاة الشيخ الجاسر بأبحاثه، نشر بعضًا منها والآخر في طريقه إلى النشر. وقد انعكست حالته الصحية أخيرًا على كتابة أبحاثه من حيث توثيقها وترابطها، ولكنه مثل الشيخ الجاسر، رحمهما الله جميعًا، يصرّان على العمل حتى آخر لحظات في عمرهما.

لقد تشرفت بالتتلمذ على كتب صالح العلي، وأفدت منها كثيرًا، كما أتشرف بأنني كنت أحد الذين رشحوا كتابه لجائزة الملك فيصل لقسم التاريخ بجامعة الملك سعود، وكتبنا مذكرة بمبررات أحقية الكتاب وصاحب الكتاب بالجائزة، فلاقى الترشيح قبولاً من جميع المجالس في الجامعة، وأنا وزملائي ندين لهم بالفضل. ثم تعرّفتُ على العلي عندما زار الرياض لأوّل مرة، وصار يشرّف قسم التاريخ بالزيارة كلما زار الرياض، واستجاب مرة وألقى محاضرة عامة، كما كنتُ ألتقي به في محل إقامته في الفندق لأستفيد من علمه.

رحم الله أحمد صالح العلي رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه، وأحر العزاء وأصدقه لابنه أحمد وأسرته وزملائه ومحبيه وطلابه. ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.